المجلة العراقية للبحوث الإنسانية والإجتماعية والعلمية
Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN 2790-1254
العـــدد 20A شباط 2026
No.20A Feb. 2026

تأثير معركة صفين على تطور الفقه السياسي الاسلامي قراءة تحليلية في المفاهيم والمواقف

م.م. علي حميد جفات عبد الحمزة
الجامعة المستنصرية / كلية التربية الأساسية / قسم التاريخ
alihameed@uomustansiriyah.edu.iq

الملخص:

يرصد البحث اللحظات الفاصلة في التاريخ الإسلامي التي اعقبت رحيل الرسول الأكرم (ص) ، بدءاً من اختبار "السقيفة" الأول، مروراً بفتوحات عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وصولاً إلى المتغيرات الإدارية في عهد عثمان بن عفان التي أدت إلى مقتله ، يبرز البحث كيف تحولت هذه الأحداث من خلافات إدارية إلى صراعات ديموغرافية وقبلية أدت في النهاية إلى بيعة الإمام علي بن أبي طالب في ظروف استثنائية اتسمت بالانقسام وظهور جبهات معارضة قوية ونتج عنها معارك وحروب طاحنة ومنها صفين مدار البحث .

الكلمات المفتاحية : صفين ، التحكيم ، السقيفة ، علي ، معاوية

The Impact of the Battle of Siffin on the Development of Islamic Political Jurisprudence: An Analytical Reading of Concepts and Positions

Assistant Lecturer Ali Hameed Chfat Abdulhamza
Al-Mustansiriya University / College of Basic Education / History Department
alihameed@uomustansiriyah.edu.iq

Abstract:

This research traces the pivotal moments in Islamic history following the demise of the Prophet Muhammad (PBUH), beginning with the initial test of "Al-Saqifah" (the Saqifah Assembly). It proceeds through the conquests during the caliphate of Umar ibn Al-Khattab, up to the administrative changes in the era of Uthman ibn Affan, which ultimately led to his assassination. The research highlights how these events evolved from administrative disagreements into demographic and tribal conflicts. This culminated in the pledge of allegiance (Bay'ah) to Imam Ali ibn Abi Talib under exceptional circumstances characterized by division and the emergence of formidable opposition fronts. The resulting fierce battles and wars included the Battle of Siffin, which is the central focus of this study.

Keywords: Siffin, Arbitration (Al-Tahkim), Al-Saqifah, Ali, Muawiyah**.**

تمهيد :

تبدأ الاحداث من اللحظة الفاصلة التي انقطع فيها الوحي، حين انتقلت روح الرسول الأكرم (ص) إلى الرفيق الأعلى مخلفة وراءها أمة وليدة أمام اختبارها السياسي الأول، لم يكد الجسد الشريف يوارى الثرى حتى كانت سقيفة بني ساعدة تشهد مخاضاً عسيراً لتحديد شكل السلطة القادمة، وهو الاجتماع الذي انتهى ببيعة أبي بكر الصديق مؤسساً بذلك لنموذج الخلافة تبعه بعد ذلك عمر بن الخطاب الذي شهد عهده توسعاً هائلاً في رقعة الدولة ، وانطلقت الجيوش الإسلامية تدك حصون الإمبراطوريات القديمة في فارس واتجهت نحو الشام ومصر ، لم تكن هذه الفتوحات مجرد نصر عسكري بل كانت حركة ديموغرافية ضخمة؛ فقد هاجرت القبائل العربية

المقاتلة واستوطنت في الأمصار المفتوحة حاملة معها عصبياتها وطموحاتها، مما شكل نسيجاً اجتماعياً جديداً ومعقداً في تلك البلدان.

"وجد المسلمون انفسهم بعد مقتل عمر بن الخطاب عام 23 هـــ امام مهمة اختيار خليفة يدير شؤونهم المختلفة ، فالخليفة عمر امتنع عن تعيين خليفة له"[1] وبالانتقال الى عهد عثمان بن عفان اخذ منعرج الخلافة يظهر بملامح سياسة داخلية جديدة ؛ حيث مال الخليفة الثالث إلى تولية أقاربه من بني أمية مفاصل الدولة، مانحاً إياهم نفوذاً واسعاً في الاماكن العليا من الإدارة . هذا التوجه أثار حفيظة النخب الإسلامية والقبائل لا سيما في حواضر العراق الكوفة والبصرة ومصر، التي رأت في هذه السياسة استئثاراً بالسلطة والثروة. تصاعد الغليان حتى وصل الى ضرب حصاراً حول دار الخليفة، انتهى بمأساة . مروعة تمثلت في مقتل عثمان وانتهاء ولاية الخليفة الثالث

المبحث الأول

المطلب الأول : المواقف السياسية

أ. الموقف السياسي منذ سقيفة بني ساعدة إلى مقتل عثمان بن عفان:

شكل رحيل نبي الأمة الإسلامية (ص) عام 11هـ بداية لمرحلة مفصلية في تاريخ المسلمين، حيث واجهوا تحدي اختيار خليفة يقود الأمة وقد أثمر اجتماع السقيفة عن اختيار أبي بكر الصديق، ويروى عن عمر بن الخطاب قوله "فارتفعت الأصوات ، وكثر اللغط ، فلما أشفقت الاختلاف ، قلت لأبي بكر : ابسط يدك أبايعك ، فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون ، وبايعه الأنصار ثم نزونا على سعد ، حتى قال قائلهم : قتلتم سعد بن عباده فقلت : قتل الله سعدا ! وانا والله ما وجدنا امرا هو أقوى من مبايعه أبى بكر ، خشينا ان فارقنا القوم ولم تكن بيعه ان يحدثوا بعدنا بيعه ، فاما ان نتابعهم على ما نرضى ، أو نخالفهم فيكون فساد"[2]، وهو حدث جرى في غياب الإمام علي الذي كان عاكفاً على مراسم دفن النبي (ص) ارتكزت الخلافة في عهدي أبي بكر وعمر على مبدأ الشورى ومركزية القيادة لضمان وحدة الصف، ولكن مع مجيء عثمان بن عفان عام 23هـ ، تغيرت ملامح الإدارة، فالبرغم من التوسع في الفتوحات واجه عثمان انتقادات واسعة بسبب اعتماده المتزايد على أقاربه في المناصب القيادية هذا النهج ولد غضباً شعبياً في الأمصار الكبرى، وتطور الرفض لسياسته الى ولادة ثورة عارمة نتجت الى محاصرته " ورجعوا إلى عثمان فحصروه في داره ، ومنعوه الماء ، فأشرف على الناس وقال : ألا أحد يسقينا ، وقال : بم تستحلون قتلي وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يحل دم امرىء مسلم إلا باحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير نفس » ؟ ووالله ما فعلت ذلك في جاهلية أو إسلام" [3] انتهت بقتله سنة 35هـ ،(وكان ممن وصل إليه محمد بن أبي بكر ورجلان آخران ، وعند عثمان زوجته وأهله ومواليه مشاغيل بالقتال ، فأخذ محمد بن أبي بكر بلحيته ، فقال : يا محمد ، والله لو رآك أبوك لساءه مكانك ، فتراخت يده ، وخرج عنه إلى الدار ، ودخل رجلان فوجداه فقتلاه ، وكان المصحف بين يديه يقرأ فيه فصعدت امرأته فصرخت وقالت : قد قتل أمير المؤمنين ، فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما من بني أمية ، في حدوه قد فاضت نفسه رضي الله عنه ، فبكوا فبلغ ذلك عليا وطلحة والزبير وسعدا وغيرهم من المهاجرين والأنصار فاسترجع القوم ، ودخل علي الدار ، وهو كالواله الحزين ، فقال لابنيه : كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب ؟ ولطم الحسن ، وضرب الحسين ، وشتم محمد بن طلحة ، ولعن عبد الله

---

[1] _ المؤرخون العرب والفتنة الكبرى (دراسة تاريخية منهجية) ، عدنان محمد ملحم ، دار الطليعة للطباعة والنشر _ لبنان _ط2 ، 2001 _ ص 56

[2] _ تاريخ الأمم والملوك – الطبري – مطبعة دار المعارف بيروت – 1387 هـ - ج3 – ص 206

[3] _ مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر _ ج ٢ _ ص ٢٣٢

بن الزبير ، فقال له طلحة : لا تضرب يا أبا الحسن ، ولا تشتم ، ولا تلعن ، لو دفع مروان ما قتل . وهرب مروان وغيره من بني أمية ، وطابوا ليقتلوا فلم يوجدوا ، وقال علي لزوجته نائلة بنت الفرافصة : من قتله وأنت كنت معه ؟ فقالت : دخل إليه رجلان ، وقصت خبر محمد بن أبي بكر ، فلم ينكر ما قالت ، وقال : والله لقد دخلت عليه وأنا أريد قتله ، فلما خاطبي بما قال خرجت ، ولا أعلم بتخلف الرجلين عنى ، والله ما كان لي في قتله سبب ، ولقد قتل وأنا لا أعلم بقتله" [4] وتوكد الرواية صراحة ان علي لم يكن له يد في مقتل عثمان بن عفان وتبطل ادعاء معاوية بن ابي سفيان وهذا مدار البحث لاحقا لكونه ذريعة أساسية لإشعال نار الحرب في صفين ، ليكون ذلك الحادث سابقة هي اولى من نوعها في تاريخ الدولة الإسلامية ،

ب : الموقف السياسي بعد مقتل عثمان وبيعة الامام علي بن ابي طالب:

بعد الفراغ السياسي الذي خلفه مقتل الخليفة عثمان بن عفان، اتجهت أنظار الأمة نحو الإمام علي بن أبي طالب ، لم يكن اختياره وليد الصدفة، بل جاء استجابة لضرورة تاريخية ومكانة استثنائية؛ فهو الأحق والأولى وكان اختيار الهي استنادا إلى حديث خم من كنت مولاه فهذا علي مولاه وكذلك أقدميته في الإسلام، وعلمه، وكونه أول من بايع النبي (ص) ، حيث يروى ان الرسول " خرج ليلا منصرفا إلى المدينة فصار الى موضع بالقرب من الجحفة يقال له « غدير خم » ثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة وقام خطيبا وأخذ بيد علي بن أبي طالب (ع) فقال : ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم قالوا بلى يا رسول الله قال فمن كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، ثم قال ص: أيها الناس إني فرطكم وأنتم واردون علي الحوض وإني سائلكم حين تردون علي عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما ، قالوا وما الثقلان يا رسول الله قال النقل الاكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرف بايديكم فاستمسكوا به ولا تضلوا ولا تبدلوا وعترتي أهل بيتي"[5]

وبعد مقتل عثمان في مشهد استثنائي بالمدينة المنورة، وأمام ملا من الناس، انعقدت البيعة للإمام علي شارك فيها السواد الأعظم من المهاجرين والأنصار، مما شكل هذا صبغة شرعية شعبية في الاختيار ، ورغم هذا التأييد الجارف، برزت أصوات قليلة أثرت الاعتزال أو الإحجام في بادئ الأمر، مثل سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر، وهو ما عكس بداية تشكل خارطة سياسية متباينة الولاءات مع التأكيد "أن عليا بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة ، وليس في معاوية خصلة تقربه من الخلافة" [6] وقام بعض الصحابة ومنهم " أبو أيوب الأنصاري ورفاعة بن رافع وعمار بن ياسر إلى علي وقالوا : قد رأيت ما صنع عثمان وما أتاه من خلاف الكتاب والسنة، وقد أفسد هذا الأمر، فابسط يديك نبايعك لتصلح من أمر هذه الأمة ما قد فسد" [7] لم تكن بداية خلافة الإمام على متيسرة ، بل جابهت أخطر تحد سياسي تمثل في تمرد الشام قاد معاوية بن أبي سفيان أول عصيان علني ضد سلطة الخليفة، متخذاً من " قميص عثمان " شعاراً سياسياً للمطالبة بالثأر قبل الدخول في الجماعة وبهذا " أرسل علي رجلا من أصحاب النبي هو جرير بن عبد الله البجلي إلى معاوية، يطلب إليه أن يبايع وأن يدخل فيما دخل فيه الناس، ويبين له حجة علي فيما يطلب إليه" [8]

---

[4] _ مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر _ ج ٢ _ ص ٢٣٢_٢٣٣

[5] _ تاريخ العيقوبي_ احمد ابن ابي يعقوب_ مطبعة الغري النجف ١٣٥٨_ ج٢ _ ص٩٣

[6] _مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر _ ج ٢ _ ص ٢٧٦

[7] _ موسوعة التأريخ الاسلامي _ اليوسفي الغروي _ اضواء الحوزة لبنان_ ج٤ _ ص ٤٣٢

[8] _ الفتنة الكبرى _ طه حسين _ مؤسسة الهنداوي _ ج٢ _ ص ٧٣

ارتكز موقف معاوية على استراتيجية القصاص قبل البيعة، استغل صلة القرابة التي تجمعه بعثمان، ونفوذه القوي في الشام، ليحول قضية جنائية إلى "معارضة سياسية". كان منطقه يتلخص في : "تحميل الإمام على مسؤولية حماية عثمان بصفته الشخصية الأقوى في المدينة آنذاك، واعتبار عدم تسليم الجناة مبرراً شرعيا لرفض الطاعة ، واستخدام دماء عثمان كحجة لتحقيق غايات سياسية تتجاوز حدود القضاء لتصل إلى انتزاع مكاسب في الحكم، وعلى الجهة الأخرى كان الإمام على يرى الأمور من منظور رجل الدولة" الذي يولي الأولوية لترسيخ النظام العام وتلخصت رؤيته في أن البيعة حق عام لا يجوز نقضه، وقد انعقدت بإجماع أهل المدينة و الأمصار ان إقامة القصاص والعدالة لا يمكن أن تتم في ظل الفوضى، بل تتطلب استقراراً سياسياً ومؤسساتياً أولاً، اعتبر موقف معاوية خروجاً عن "الإجماع" وتمرداً على وحدة الأمة.

و تداخلت في هذا النزاع أبعاد جغرافية وقبلية عمقت هوة الانقسام، حيث تحول النزاع إلى انقسام إقليمي؛ حيث انحازت قبائل الشام لمعاوية بدافع العصبية الأموية والقبلية، بينما التف أهل العراق واليمن حول الإمام علي معتبرين نهجه تجسيداً لقيم العدالة النبوية.

ولم يهنأ الامام علي باستقرار الحكم، إذ سرعان ما برزت جبهة معارضة له قادها طلحة والزبير بدعم من السيدة عائشة، الذين خرجوا من مكة إلى البصرة. وجد الإمام علي نفسه مضطراً لتجهيز جيش والخروج لمواجهتهم حفاظاً على وحدة الدولة، فكانت واقعة الجمل بشرارة من السيدة عائشة "فانصرفت إلى مكة فنزلت على باب المسجد فقصدت للحجر ، فسترت واجتمع إليها الناس ، فقالت : يا أيها الناس ، ان عثمان قتل مظلوما ، و الله لأطلبن بدمه)"[9] و انتهت بانتصار جيش الإمام و هذه الاحداث تمهيدا وتصعيدا لاحداث الفتنة الكبرى (صفين) موضع البحث " هدأت وقعة الجمل فهب معاوية كإعصار عاصف ، فملأ السهل والجبل بدعوى الثأر لعثمان ولقتلى يوم الجمل "[10] ، فتشكلت قوة افتراق عقائدي وسياسي فرسم معاوية بن أبي سفيان خارطة جديدة ، ونصب نفسه والي على الشام متفرد ومستأثر بالسلطة ، رافضا الدخول في حكم الإمام علي، رافعاً قميص عثمان ذريعة للقصاص من قتلته كواجهة سياسية لرفض البيعة، متخذاً من الشام قاعدة لحكمه مستقبلا حيث قيل "إن أبا موسى قد كتب في الصحيفة إن عثمان قد قتل مظلوما شهيدا و إن لوليه أن يطلب بدمه حيث كان ، وقد صحب معاوية رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وصحب أبوه النبي صلى الله عليه وسلم ، وأطراه ، ورغب الناس فيه ، وقال : هو الخليفة علينا ، وله طاعتنا و بيعتنا على الطلب بدم عثمان "[11] و " حين قتل عثمان رضي الله عنه ، واجتمع المهاجرون والأنصار ، فيهم طلحه والزبير ، فاتوا عليا فقالوا : يا أبا حسن ، هلم نبايعك ، فقال : لا حاجه لي في امركم ، انا معكم فمن اخترتم فقد رضيت به ، فاختاروا والله فقالوا : ما نختار غيرك ، قال : فاختلفوا اليه بعد ما قتل عثمان "[12]

أدرك الإمام علي أن لا مناص من الحسم، فقرر الزحف لمواجهة معاوية، ليلتقي الجيشان في صفين سنة 37 هـ . وهنا يكمن جوهر بحثنا؛ إذ لم تكن صفين مجرد نزال عسكري كبقية المعارك، بل كانت اللحظة الأكثر تعقيداً في تاريخ المسلمين.

---

[9] _ تاريخ الأمم والملوك – الطبري – مطبعة دار المعارف بيروت – 1387 – ج4 – ص 458-459

[10] _ شعر الحرب في ادب العرب (في العصرين الاموي والعباسي الى عهد سيف الدولة _ د. زكي المحاسني _ دار المعارف _ 1961 _ ص 56

[11] _ مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر _ ج ٢ _ ص ٢٧٨

[12] _ تاريخ الأمم والملوك – الطبري – مطبعة دار المعارف بيروت – 1387 – ج4 – ص 427-428

في سهول صفين، لم تتقارع السيوف فحسب، بل تقارعت التأويلات كانت هذه المعركة هي الإعلان الرسمي عن انفصال السلطة عن الشرعية . لقد مثلت صفين البذرة الأولى لما يمكن تسميته بالإسلام السياسي حيث تحول الخلاف من اجتهاد في الإدارة إلى تمايز عقائدي ومذهبي حاد، أنتج فرقاً وتيارات لا نزال نعيش ارتداداتها الفكرية والسياسية حتى يومنا هذا.

المطلب الثاني : الدوافع الشرعية والاقتصادية والنفسية لقيام معركة صفين

أ. الدافع الديني: صراع الشرعية والدم

في خضم الأحداث التي تلت مقتل عثمان، برز العامل الديني كمحرك أساسي للصراع، متخذاً شكل جدل عميق حول مفهوم السلطة وأسس الشرعية فمن جهة، انطلق الإمام علي في موقفه من أرضية صلبة تستند إلى شرعية "البيعة"، حيث رأى أن الخلافة قد انعقدت له عبر الانتخاب التشاوري الصحيح من قبل أهل الحل والعقد، مما يجعل طاعته واجبة شرعاً لضمان وحدة الأمة واستقرارها.

وعلى الجانب الآخر، لم يرفض معاوية مبدأ الخلافة فحسب، بل أعاد ترتيب الأولويات الدينية والسياسية؛ إذ عد القصاص لدم عثمان" أمانة في عنقه وواجبا يسبق أي ولاء، جاعلاً من استيفاء هذا الحق شرطاً لازماً قبل الاعتراف بأي سلطة مركزية أو الدخول في طاعة الخليفة الجديد "فصعد المنبر معاوية بالشام، وجمع الناس، ونشر عليهم القميص، وذكر ما صنعوا بعثمان، فبكى الناس وشهقوا ، حتى كادت نفوسهم أن تزهق، ثم دعاهم إلى الطلب بدمه، فقام إليه أهل الشام، فقالوا : هو ابن عمك، وأنت وليه ونحن الطالبون معك بدمه، فبايعوه أميراً عليهم، وكتب وبعث الرسل إلى كور الشام"([13]) ولم يتوقف هذا التباين عند القادة، بل انسحب إلى القواعد الشعبية والأنصار، ففي معسكر العراق تجذرت قناعة لدى أنصار الإمام علي بأن المسألة تتعدى الاختيار البشري، مستندين إلى نصوص دينية يرونها دليلاً قاطعاً على أحقيته وإمامته الروحية والسياسية. اما في معسكر الشام ساد منطق مختلف لدى مناصري معاوية، الذين تعاملوا مع الخلافة بمنظور أخر، معتبرين إياها شأناً إدارياً يتطلب "الكفاءة السياسية" والقدرة على التدبير، بعيداً عن الالتزام بالنصوص التي تمسك بها الطرف الآخر وبذلك "معاوية كتب إلى عليّ . أما بعد، فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان كنت كأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين، وخذلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل، وقوي بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان .... ولا انكره [14]"

ب_ الدافع الاقتصادي وأثره السياسي

في خضم التوسع الإسلامي الهائل الذي شهدته تلك الحقبة، لم تكن الفتوحات مجرد نصر عسكري، بل كانت نقطة تحول اقتصادي أفرزت مراكز قوى جديدة تنافس المدينة المنورة، وتحديداً في الكوفة والشام ومصر، ومع تدفق الأموال، تحول هذا الثراء إلى وقود للصراع المحتدم حول السيطرة على مصادر الدولة وعوائد الفتوحاتوفي هذا المشهد، برز التباين الحاد بين المعسكرين فبينما أحكم معاوية قبضته على بلاد الشام التي تميزت بكونها جبهة غنية تنعم بالاستقرار الداخلي، كانت الجبهة العراقية في الكوفة تموج بالاضطرابات السياسية والنزاعات القبلية التي شتتت جهودها، وقد كان لهذا التفاوت الاقتصادي والاجتماعي الكلمة الفصل إذ منح معاوية تفوقاً لوجستياً، وعزز من قدرة جيشه على الصمود والقتال مقارنة بخصومه .

---

[13] _ الامامة والسياسية _ ابن قتيبة الدنيوري_ تحقيق علي الشيري_ مطبعة دار الاضواء ١٩٩٠ _ ج ١ _ ص ٩٩

[14] _ الامامة والسياسية _ ابن قتيبة الدنيوري_ تحقيق علي الشيري_ مطبعة دار الاضواء ١٩٩٠ _ ج ١ _ ص ١٢١

ج. الدافع النفسي والقبلي للصراع

لم تكن المعركة الدائرة بين المعسكرين مجرد نزاع سياسي بارد حول السلطة بل كانت صراعاً عميقاً بين منهجين ونفسيتين مختلفتين تماماً، تداخلت فيهما العواطف الشخصية مع نداءات الدم والقبيلة.

فعلي بن أبي طالب: صرامة المبدأ والعدالة المطلقة حيث كان الإمام علي يمثل مدرسة في الزهد الصارم والعدالة المجردة ، ولم يكن يرى في الخلافة مغنماً، بل تكليفاً يوجب عليه المساواة بين الجميع. هذه الصرامة المبدئية" جعلته لا يتردد في تطبيق العدل حتى لو كان ذلك على حساب أقرب الناس إليه أو كبار الصحابة ، هذا النهج النقي اصطدم بنفوس اعتادت على نمط معين من الامتيازات والعطايا، مما خلق شرخاً نفسياً وجفوة بينه وبين بعض الشخصيات التي وجدت في عدالته "قسوة" على مصالحها. اما معاوية بن أبي سفيان: فقد امتاز بدهاء السياسة وفن الممكن فيقف بصفته السياسي البراغماتي المحنك. فلم يكن يعتمد على الزهد، بل على "الدهاء" والقدرة الفائقة على قراءة النفوس وخبيراً في نسج التحالفات القبلية، يعرف متى يشد الخيط ومتى يرخيه وكيف يكسب ولاء الزعماء بالمال والكلمة، مستغلا كل فرصة للمناورة السياسية لترجيح كفته .

وكان لصرخة الدم والعصبية الأموية تعمق المشهد وتغلي تحت السطح. اما بالنسبة لبني أمية لم يكن مقتل الخليفة عثمان بن عفان مجرد حادثة اغتيال سياسية، بل اعتبروه جرحاً غائراً في كرامتهم القبلية وانتقاصاً من هيبتهم. تحول الدفاع عن معاوية في نظرهم إلى دفاع وجودي عن إرث بني أمية ومكانتهم، فاصطفوا خلفه ليس فقط ولاء لشخصه، بل انتصاراً لدم عثمان واستعادة لمجدهم القبلي.

المطلب الثالث : المواجهة العسكرية وفشل الدبلوماسية

لم يكن صوت السيوف هو أول ما ارتفع بين المعسكرين؛ فقد سبقت المواجهة الدامية مرحلة طويلة من المد والجزر الدبلوماسي، تبادل الطرفان رسائل عديدة، حيث سعى الإمام علي بن أبي طالب في كتبه إلى رأب الصدع، وكان معاوية بن أبي سفيان حائلا على الدخول في البيعة ونبذ الخلاف، مؤكداً أن القصاص من قتلة عثمان سيأخذ مجراه العادل فور استتباب الأمن ، وتشبث معاوية بموقفه الرافض، مما أوصل المفاوضات إلى طريق مسدود، وأيقن الطرفان أن لغة الحوار قد استنفدت أغراضها، وأن وقت الحسم العسكري قد حان" ولم يبق أمام علي من الخصوم أقوى من معاوية ، فأثر علي - كعادته خطة المسالمة، والبدء بالإقناع في عدد من الرسائل المتبادلة بينه وبين معاوية . والتي ظهر منها عنت معاوية، ورفضه للمسالمة، فوجد علي أن الصدام مع معاوية حتمي ، فزحف بجيشه إلى صفين"[15]

وبهذا" سير علي من الكوفة إلى صفين الخمس خلون من شوال سنة ست وثلاثين ، واستخلف على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عامر الأنصاري ، فاجتاز في مسيره بالمدائن ، ثم أتى الأنبار ، وسار حتى نزل الرقة ، فعقد له هناك جسرا فعبر إلى جانب الشام وقد تنوزع في مقدار ما كان معه من الجيش فمكثر ومقلل ، والمتفق عليه من قول الجميع تسعون ألفا" [16] وتوجه " علي بالناس من الكوفة في مئة ألف وتسعين ألفاً، فجعل على المقدمة الأشتر النخعي، وعلى ساقته شريح بن هاني، وعلى المهاجرين والأنصار محمد بن أبي بكر، وعلى أهل البصرة عبد الله بن عباس، وعلى الكوفة عبد الله بن جعفر، وعلى جماعة الخيل عمار بن ياسر، وعلى القلب الحسن بن علي ، وسار علي حتى نزل صفين، وقد سبقه معاوية إلى سهولة الأرض وسعة المناخ، وقرب الفرات"[17] واما معاوية فقد " عزم على المسير إلى صفين عبا أهل الشام، فجعل على مقدمته أبا الأعور السلمي، وعلى

---

[15] _ عبقرية الامام علي _ عباس محمود العقاد _ منشورات المكتبة العصرية بيروت _ ص ٨_ ٩

[16] _ مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر _ ج ٢ _ ص ٢٥٧

[17] _ الامامة والسياسة _ ابن قتيبة الدنيوري_ تحقيق علي الشيري_ مطبعة دار الاضواء ١٩٩٠ _ ج ١ _ ص ١٢٤

ساقته بسر بن أرطأة، وعلى الخيل عبيد الله بن عمر، ودفع اللواء إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعلى الميمنة يزيد العبسي، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص"[18]

- **الحشد والمسير إلى المواجهة**

عقب انجلاء غبار "معركة الجمل" عام 36 هـ ، بدأت عجلة الحرب بالدوران وانقسم على معسكرين: الأول: معسكر العراق : ومنه اتخذ الإمام علي من الكوفة مركزاً لإدارته العسكرية والسياسية لموقعها الاستراتيجي، ومنها حشد جيشاً جراراً ضم خليطاً من أهل العراق وفارس والحجاز "ثم إن علياً صعد المنبر، فبدأ بالحمد له والثناء عليه ثم قال : إن الله قد أكرمكم بدينه، وخلقكم لعبادته، فانصبوا أنفسكم في أداء حقه فتنجزوا موعوده. واعلموا أن الله جعل أمراس دينه متينة، وعُراء وثيقة، ثم جعل الطاعة حظ الأنفس برضاء وغنيمة الأكياس عند تفريط الفجرة. وقد حملت أمر أسودها وأحمرها ولا قوة إلا بالله، ونحن سائرون إن شاء الله - إلى من سفه نفسه وتناول ما ليس له ولا يدركه : معاوية وجنده الفئة الباغية، يقودهم ابليس ويُبرق لهم ببارق تسويفه ويمدهم بغروره"[19]

"وكان أول القتال مع أول صفر يوم الأربعاء، وكان بدء القتال مع مسيرة أهل الشام وعليهم حبيب بن مسلمة الفهري، وخرج إليه من العراق الأشتر النخعي مع قومه من مذحج ، فتقاتلوا جل النهار منتصفين، وتراجعوا"[20]

والثاني : معسكر الشام : فقد ركز معاوية جهوده على تعزيز جبهته الداخلية، جامعاً جيشه من أهل دمشق وحمص وفلسطين وقنسرين، مستنداً إلى العصبية القبلية والولاء لبني أمية، ومستفيداً من التماسك العسكري الذي تميزت به جيوش الشام منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب " ولا نجد كتاباً نصاً عن علي في عزل معاوية إلا التالي : لما أتى معاوية كتاب علي بعزله عن الشام. نادى في الناس أن يحضروا المسجد ثم خرج حتى صعد المنبر، وخطب فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال : يا أهل الشام قد علمتم أني خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ثم خليفة عثمان، وقد قتل مظلوماً وأنا بن عمه ووليه، والله يقول في كتابه : (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً)، فأنا أحب أن تعلموني ما في أنفسكم من قتل عثمان" [21]

- **صراع الماء والأخلاق**

حيث تحركت الجحافل والتقى الجمعان على ضفاف نهر الفرات في منطقة "صفين" عام 37 هـ. كانت المفاجأة الأولى استراتيجية بامتياز؛ فقد سبق جيش معاوية إلى "المشرعة" وسيطروا على مصادر المياه، واضعين جيش الإمام على في مأزق العطش " وسار معاوية من الشام ، وقد تنوزع فسبق عليا إلى صفين ، وعسكر في موضع سهل أفيح اختاره قبل قدوم علي"[22] علما ان " معاوية قد سار في جموع أهل الشام حين علم بتأهب علي للمسير، وقدم بين يديه الطلائع أيضًا، وقد انتهى قبل علي إلى صفين فأنزل أصحابه أحسن منزل و أرحبه وأقربه إلى شريعة الفرات، وأقبل علي في جيشه الضخم فأنزل أصحابه بإزاء أصحاب معاوية ولكن أصحاب علي لم يجدوا على الفرات شريعة يستقون منها"[23]

---

[18] _ الامامة والسياسية _ ابن قتيبة الدنيوري_ تحقيق علي الشيري_ مطبعة دار الاضواء ١٩٩٠ _ ج ١ _ ص ١٢٣

[19] _ موسوعة التأريخ الاسلامي _ اليوسفي الغروي _ اضواء الحوزة لبنان_ ج٥ _ ص ٦٣

[20] _موسوعة التأريخ الاسلامي _ اليوسفي الغروي _ اضواء الحوزة لبنان_ ج٥ _ ص١٢٩

[21] موسوعة التأريخ الاسلامي _ اليوسفي الغروي _ اضواء الحوزة لبنان_ ج٤ _ ص ٤٦٠"

[22] _ مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر _ ج ٢ _ ص ٢٥٧

[23] _ الفتنة الكبرى _ طه حسين _ مؤسسة الهنداوي _ ج٢ _ ص٨٣

رغم محاولات الإمام على للتفاوض حول "حق الماء"، رجع طلبه بالرفض. هنا، لم يكن بد من القوة، فشن مالك الأشتر النخعي هجوماً كاسحاً استرد به الشريعة. وفي مشهد يجسد الفارق الأخلاقي، سمح الإمام علي لجيش خصمه بالشرب، رافضاً استخدام العطش سلاحاً في الحرب.

- **من المبارزة إلى الحرب الشاملة**

مع استهلال شهر ذي الحجة، وبعد يأس تام من الحل السلمي، قرعت طبول الحرب، وبدأت المعركة بنظام المبارزات الفردية والكر والفر المحدود، حيث كان الفرسان يخرجون تباعاً في استعراض للقوة والمهارة. ولكن سرعان ما تغير المشهد؛ وتحولت المناوشات إلى اشتباك شمولي واسع النطاق" (ولما كان أول يوم من ذي الحجة بعد نزول علي على هذا الموضع بيومين بعث إلى معاوية يدعوه إلى اتحاد الكلمة والدخول في جماعة المسلمين ، وطالت المراسلة بينهما ، فاتفقوا على الموادعة إلى آخر المحرم في سنة سبع وثلاثين ، وامتنع المسلمون عن الغزو في البحر والبر لشغلهم بالحروب ، وقد كان معاوية صالح ملك الروم على مال يحمله إليه أشغله بعلي ، ولم يتم بين علي ومعاوية صلح على غير ما اتفقا عليه من الموادعة في المحرم ، وعزم القوم على الحرب بعد انقضاء المحرم"[24]

اعتمد جيش العراق على كثافة المشاة وخبرة الخيالة، بينما تميز جيش الشام بالانضباط التكتيكي والمناورة. وشهدت الأيام الأولى مواجهات قادها كبار القادة، كمالك الأشتر من جهة، وعمرو بن العاص من جهة أخرى، الذي كان دوره تخطيطياً أكثر منه قتالياً " وقد تنوزع في مقدار من قتل من أهل الشام والعراق بصفين : فذكر أحمد ابن الدورقي عن يحيى بن معين أن عدة من قتل بها من الفريقين في مائة يوم وعشرة أيام مائة ألف وعشرة آلاف من الناس : من أهل الشام تسعون ألفاً ،ومن أهل العراق عشرون الفا ، ونحن نذهب إلى أن عدد من حضر الحرب من أهل الشام بصفين أكثر مما قيل في هذا الباب ، وهو خمسون ومائة ألف مقاتل ، سوى الخدم والأتباع ، وعلى هذا يجب أن يكون مقدار القوم جميعا من قاتل منهم ومن لم يقاتل من الخدم وغيرهم ثلثمائة ألف بل أكثر من ذلك"[25]

- **ليلة الهرير: ذروة المعركة وقلب الموازين**

وصلت المعركة إلى ذروتها في ليلة خلدت في التاريخ باسم "ليلة الهرير"، لم يتوقف فيها صليل السيوف حتى مطلع الفجر، وسقط فيها عدد هائل من القتلى. في خضم هذا الجحيم، شق مالك الأشتر صفوف الشام ببراعة وشجاعة نادرة، مقترباً من خيمة القيادة، حتى بات قاب قوسين أو أدنى من حسم المعركة والوصول إلى معاوية "وكاد النصر أن يتم لعلي ، لولا خدعة رفع المصاحف، وطرح قضية التحكيم .... شر هزيمة "[26]

- **رفع المصاحف واختلاف الآراء**

في اللحظة التي أوشك فيها جيش الشام على الانهيار، برز دهاء عمرو بن العاص لينقذ الموقف. أشار على معاوية بحيلة نفسية بارعة: رفع المصاحف على رؤوس الرماح " فحينما لاح خطر الهزيمة رفع أهل الشام المصاحف على أسنة رماحهم عملاً بمشورة عمرو بن العاص، فأحدثوا في أهل العراق الأثر المطلوب، خصوصاً في القراء الأتقياء حقاً إن علياً قد أدرك الحيلة، بيد أنه لم يستطع أن يبدد مفعولها ، بل قد هدد شخصياً

---

[24] _ مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر _ ج ٢ _ ص٢٥٩"

[25] _ مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر _ ج ٢ _ ص ٢٧٤

[26] _ عبقرية الامام علي _ عباس محمود العقاد _ منشورات المكتبة العصرية بيروت _ ص ٨_ ٩

لما حاول ذلك . وكان عليه أن يقف القتال وأن يستدعي الأشتر الذي كان من النصر قاب قوسين أو أدنى، حتى لا يواصل القتال. فاضطر هذا رغماً عنه أن يمتثل لأمر علي وقد قرره عليه"[27]

ودوى الصوت في الميدان يدعو للاحتكام إلى _كتاب الله_ القرآن كان لهذا التصرف وقع الصاعقة على جيش الإمام علي، فانقسم الصف . فريق رأى ضرورة وقف القتال استجابة للقرآن و: فريق اخر بينهم الإمام علي أدرك أنها خدعة عسكرية لتلافي الهزيمة ، وتحت ضغط الانقسام والتمرد الداخلي، اضطر الإمام على لقبول وقف القتال والنزول عند رغبة المطالبين بالتحكيم "ونزل علي عند رأي الكثرة كاره"[28] "ولما وقع التحكيم تباغض القوم جميعا ... وتفاوت الرأي، وعدم النظام لأمورهم ، وما لحقه من الخلاف منهم ، وكثرة التحكيم في جيش أهل العراق ، وتضارب القوم بالمقارع ونعال السيوف ، وتسابوا ، ولام كل فريق منهم الآخر في رأيه ، وسار علي يؤم الكوفة ، والحق معاوية بدمشق من أرض الشام ، وفرق عساكره فلحق كل جند منهم ببلده ، ولما دخل علي رضى الله عنه الكوفة انحاز عنه أثنا عشر ألفا من القراء وغيرهم فلحقوا حرورى قرية من قرى الكوفة ، وجعلوا عليهم شبيب بن ربعي التميمي ، وعلى صلاتهم عبد الله بن الكواء اليشكري من بكر ابن وائل ، فخرج علي إليهم وكانت له معهم مناظرات فدخلوا جميعا الكوفة"[29]

" وقد يتوهم متوهم أن الناكثين قصدوا البصرة، فلحقهم علي عليه السلام»، وأراد أن يردهم فقاتلوه، فجمع ألوف المقاتلين وقصدهم إلى البصرة، فقاتلهم وقتلهم.....ان لزم الامر" [30]

التحكيم والنهاية المعلقة

انتقلت المعركة من ساحة الحرب إلى خيمة التفاوض في دومة الجندل مثل معاوية بـ (عمرو بن العاص)، ومثل الإمام علي بـ (أبي موسى الأشعري) انتهت جلسات التحكيم إلى نتائج مضطربة بسبب مكر ابن العاص وجدل التفاصيل مما أدى إلى فشل العملية في إنهاء النزاع جذرياً وفي نهاية المطاف لم يخرج أحد منتصراً عسكرياً، لكن معاوية حقق نصراً سياسياً بالحفاظ على سلطته في الشام ونجاته من هزيمة محققة، بينما عاد الإمام علي إلى الكوفة بجيش منقسم ليبقى الوضع السياسي متأزماً، محتفظاً كل طرف بمناطق نفوذه الجغرافية " اجتمع المفوضون من الفريقين فكتبوا صحيفة سجلوا فيها ما اتفق عليه الخصمان من وضع الحرب وإيثار الحكومة واختيار الحكمين وتحديد الزمان والمكان لاجتماعهما. وتأمينهما على أنفسهما وأموالهما مهما يكن حكمهما، واستنصار الأمة كلها على من خالف عما في هذه الصحيفة..... او ظلما" [31]

المبحث الثاني: جدلية السلطة والشرعية ما بعد غبار صفين

لم تكن موقعة صفين التي دارت رحاها في العام السابع والثلاثين للهجرة مجرد صولة عسكرية، أو صليل سيوف بين جيشين متقاتلين فحسب بل كانت في عمقها التاريخي، الزلزال الأعظم الذي ضرب بنية العقل

---

[27] _ احزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الاسلام _ يوليوس فلهوزن _ترجمة عبد الرحمن بدوي _ مكتبة النهضة المصرية _ ص٣

[28] _ الفتنة الكبرى _ طه حسين _ مؤسسة الهنداوي _ ج٢ _ ص٨٧

[29] _مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر _ ج ٢ _ ص ٢٧٥

[30] _ الصحيح من سيرة الامام علي _ جعفر مرتضى العاملي _ المركز الاسلامي للدراسات _ الطبعة الاولى ٢٠٠٩ _ ج٢١ _ ص١٠٣

[31] _ الفتنة الكبرى _ طه حسين _ مؤسسة الهنداوي _ ج٢ _ ص٩٦_٩٦"

السياسي الإسلامي، لقد مثلت هذه المعركة منعطفاً مفصلياً نقل الصراع من ساحات القتال إلى ساحات الفكر والتأويل، مؤسسة بذلك لأعقد الجدليات التي سترافق التاريخ الإسلامي قروناً طويلة جدلية الشرعية والسلطة.

في تلك اللحظة الفارقة، وبمجرد أن رفعت المصاحف وتوقف القتال انفتحت أبواب الأسئلة الكبرى التي لم تغلق بعد من يملك حق الحكم؟ وما هي حدود طاعة المحكوم للحاكم ؟ وكيف بدار أمر المسلمين بعد انقضاء عهد النبوة والشيخين؟ من رحم هذه الفتنة، وتحديداً بعد واقعة التحكيم، تمخض المشهد الإسلامي عن ولادة ثلاثة تيارات فكرية وسياسية كبرى رسمت ملامح المستقبل: تيار "الخوارج" الرافض للمساومة، وتيار "التشيع" المتمسك بالنص الإلهي، وتيار "أهل السنة" الذي تبلور لاحقاً حول مفهوم الجماعة ودرء الفتنة "+وكان فيما كتب في الصحيفة أن يحيى الحكمان ما أحيا القرآن ، ولا يتبعان الهوى ، ولا يداهنان فى شيء من ذلك ، فان فعلا فلا حكم لهما ، والمسلمون من حكمهما برآء ، وقال علي للحكمين حين أكره على أمرهما ورد الأشتر وكان قد أشرف في ذلك اليوم على الفتح فأخبره مخبر بما قالوا في علي وأنه إن لم يرده سلم إلى معاوية وفعل به ما فعل بابن عفان ، فانصرف الأشتر خوفا على علي على أن تحكما بما فى كتاب الله ، وكتاب الله كله لي ، فان لم تحكما بما في كتاب الله فلا حكم لكما ، وصيروا الأجل إلى شهر رمضان على اجتماع الحكمين في موضع بين الكوفة والشام ، وكان الوقت الذى كتبت فيه الصحيفة لأيام بقين من صفر سنة سبع وثلاثين" [32]

المطلب الأول : تحول النص إلى سيف

ما إن وضعت حرب صفين أوزارها بقبول مبدأ التحكيم، حتى بدأ تململ غريب يسري في أوصال جيش الإمام علي بن أبي طالب. لم يكن هذا التململ نابعاً من خوف أو جبن، بل من تكتل يقوده فريق من القراء" والمتشددين في الدين الذين رأوا في قبول علي (عليه السلام) للتحكيم كارثة عقدية لا سياسية فحسب لقد انطلق هؤلاء من رؤية حدية قاطعة اعتبروا فيها أن تحكيم الرجال في دين الله هو "كفر " صريح، وجريمة لا تغتفر، رافعين شعارهم المدوي الذي سيتردد صداه طويلاً لا حكم إلا الله". في عرفهم، كان الإمام علي قد خلع ربطة الإسلام من عنقه بقبوله أن يحكم عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري في أمر قد فصل فيه الله، وبالتالي، فإن بيعته قد سقطت، وطاعته لم تعد واجبة.

أصل التسمية والدوافع: اختلفت السرديات التاريخية في وصف هؤلاء فالمصادر السنية أطلقت عليهم "الخوارج" لخروجهم على الإمام الحق وشقهم عصا الطاعة، بينما وصفتهم السردية الشيعية بـ "المارقين" أو "الناكثين" لنقضهم عهد البيعة وانقلابهم على إمام زمانهم. وقد استقر بهم المقام أول الأمر في منطقة حروراء" قرب الكوفة، فلحق بهم لقب "الحرورية". " (وقد روى المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وآله وصفه الخوارج بأنهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية. أما أصحاب الجمل، فقد وصفهم صلى الله عليه وآله بالناكثين ووصف أهل صفين بالقاسطين، وأهل النهروان بالمارقين...

ولكن أمير المؤمنين عليه السلام» قد بين هنا أمرا مهما، وهو يفيد أن سبب مروق الخوارج من الدين هو خلافهم عليه وحربهم إياه «صلوات الله وسلامه عليه"[33]

---

[32] _ مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر _ ج ٢ _ ص ٢٧٣

[33] _ الصحيح من سيرة الامام علي _ جعفر مرتضى العاملي _ المركز الاسلامي للدراسات _ الطبعة الاولى ٢٠٠٩ _ ج٢١ _ ص ١١٨

- ولم يكن خروجهم وليد الصدفة، بل تضافرت فيه عوامل عدة:

العامل العقدي : تمثل في إيمانهم الحرفي والظاهري بالنص القرآني رافضين أي وساطة بشرية أو تأويل عقلي في تطبيقه.

العامل السياسي : رفضهم الشديد للقيادات البراغماتية في جيش الإمام على، وعلى رأسهم الأشعث بن قيس، الذين ضغطوا لقبول التحكيم.

العامل الاجتماعي: طبيعتهم البدوية البسيطة التي تميل إلى الحدة والعصبية، وافتقارهم إلى الحنكة السياسية التي تتطلبها إدارة الدولة .

تطور الموقف من المعارضة اللفظية إلى العداء السافر؛ فبعد أن طالبوا الإمام علياً بالتوبة عن "خطيئة" التحكيم، وصل بهم الغلو إلى تكفيره. ورغم محاولات الإمام المستميتة لمحاورتهم وإعادتهم إلى الجادة كما تجلى في خطبته الشهيرة بالكوفة إلا أن تعنتهم قاد الأحداث بتسارع دراماتيكي نحو الصدام الدموي المحتوم في معركة النهروان.

المطلب الثاني : المخاض الفقهي إعادة تشكيل مفاهيم الشورى والطاعة

بعد صدمة صفين والتحكيم، لم تعد المفاهيم السياسية الإسلامية كما كانت. لقد أعيد طرح مفاهيم "الشورى" و "الطاعة" على طاولة البحث الفقهي والسياسي، لتأخذ أبعاداً مذهبية متباينة:

الشورى بين النص والاختبار :

بينما ينطلق الجميع من المبدأ القرآني (وأمرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) [34]، إلا أن التطبيق اختلف جذرياً فالاتجاهات السنية رأت أن الشورى هي الآلية الشرعية لاختيار الخليفة مستلهمة نموذج سقيفة بني ساعدة وانتخاب عثمان بن عفان، معتبرة أن اختيار الأمة هو أساس الشرعية. في حين ان الاتجاهات الشيعية اعتبرت أن منصب الإمامة أخطر من أن يترك الآراء الناس واجتهاداتهم المتغيرة؛ فهو منصب الهي يُحسم بـ "النص" والتعيين من الله ورسوله، مستندين إلى "حديث الغدير" وغيره، مما يجعل الشورى في أصل الإمامة أمراً غير وارد.

رؤية الخوارج قدموا طرحاً يوصف بالمساواة المتطرفة، حيث يرون أن الخلافة حق مشاع لكل مسلم، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لقرشي على غيره فإذا اجتمع رأي الناس على رجل لتقواه وكفاءته، صار إماماً، دون اعتبار النسب أو قبيلة.

المطلب الثالث : جدلية الطاعة.. المطلقة أم المشروطة ؟

استناداً لقوله تعالى: (أَطِيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)[35] وتشعبت الآراء بعد الفتنة

فأهل السنة : تبلور لديهم لاحقاً مفهوم يربط الطاعة باستقرار النظام العام فهي واجبة للإمام ما لم يأمر بمعصية بواحة، وذلك حفاظاً على بيضة الإسلام ودرء للفتنة التي هي أشد من القتل.

اما الشيعة: ذهبوا إلى أن الطاعة المطلقة الشاملة لا تكون إلا لـ "المعصوم" المنصوص عليه إلهياً؛ فهو الذي لا يخطئ ولا يسهو، وطاعته امتداد لطاعة الله ولا تلزم طاعة غيره بنفس الدرجة

---

34 _ الشورى ، اية (36)
35 _ النساء ، اية (59)

الخوارج: ربطوا الطاعة بـ "العدل المطلق"؛ فالحاكم يطاع ما دام عادلاً تقياً، فإذا جار أو أخطأ كما ظنوا في علي، وجب خلعه وقتاله، مؤسسين بذلك لمبدأ "الثورية المستمرة".

- **حصاد التحكيم: تبلور المذاهب السياسية**

لقد كان التحكيم بمثابة المشرط الذي فصل الجسد الإسلامي الواحد إلى مدارس متميزة، لكل منها عقيدتها السياسية:

أولا : المدرسة الشيعية : الشرعية بالنص حيث رسخ التحكيم قناعتهم بأن السياسة البشرية مليئة بالخداع والمكر (كما فعل عمرو بن العاص، مما زاد يقينهم بأن الإمامة لا تكون إلا بتعيين إلهي يحمي الأمة من الزلل أصبح الإيمان بأن علياً (عليه السلام) هو الإمام المنصوص عليه ركناً عقدياً، واعتبر أي خروج عليه خروجاً عن مراد الله وهكذا، تحول التشيع من ولاء سياسي إلى منظومة فقهية متكاملة تقوم على "العصمة والنص".

ثانيا : المدرسة الخارجية : الشرعية بالتقوى والثورة حيث خرجوا من تجربة التحكيم بعقيدة صلبة ترفض الحلول الوسط. شعار "لا حكم إلا الله" تحول إلى برنامج عمل سياسي يرفض التوريث ويرفض قريشاً كشرط للخلافة، شرعية الحاكم عندهم مرهونة بسلوكه الشخصي فإن عدل فهو إمام، وإن عصى كفر وسقطت شرعيته ووجب قتاله.

ثالثا : المدرسة السنية : الشرعية بالشورى والجماعة حيث نظرت هذه المدرسة إلى التحكيم بواقعية؛ فهو اجتهاد بشري قصد به حقن الدماء والمصالحة، وليس خروجاً عن الدين ومع مرور الزمن واستقرار الدول، أصل فقهاء السنة القواعد "فقه الطاعة"، حيث الشرعية تنعقد بالشورى والبيعة، ولكن استمرارها مرهون بالقدرة على حماية الأمة وإقامة الدين، مع التشديد على حرمة الخروج على الحاكم إلا بكفر بواح تغليباً لمصلحة الجماعة ووحدتها.

ومن هذا نستنتج ان حادثة التحكيم وماتلاها أسست لمعالم فكر سياسي إسلامي؛ فقد أفرزت درسين قاسيين الأول أن الخضوع للضغط السياسي كما حدث في قبول التحكيم قد يؤدي إلى انشقاقات أعمق (ظهور الخوارج) والثاني أن آليات حل النزاع كالتحكيم تظل سلاحاً ذو حدين، قد يحقن الدم حيناً، ولكنه قد يفتح أبواب التأويل والاختلاف أحياناً أخرى. لقد ظل صدى صفين يتردد في جنبات التاريخ مشكلاً العقلية السياسية للمسلمين ما بين طاعة مطلقة للمعصوم عند الشيعة، وطاعة مشروطة بالعدل عند الخوارج، وطاعة حفاظاً على الجماعة عند أهل السنة.

الخاتمة :

صفوة القول في هذا المسار التاريخي الدامي، إن موقعة "صفين" لم تكن محض صدام عسكري طويت صفحته بجفاف دماء المقاتلين، بل كانت "المعمل التاريخي". الذي أعيد فيه صياغة العقل المسلم سياسياً وعقدياً. لقد مثلت هذه المحطة لحظة الانكسار الكبرى التي تحولت فيها الخلافة من "رابطة إيمانية" تعتمد السابقة والفضل، إلى "ملك عضوض" يعتمد الغلبة والدهاء، ومن "وحدة الجماعة" إلى تعددية الفرق."

نستنتج مما سبق أن مأساة صفين والتحكيم لم تكمن في رفع المصاحف على الرماح فحسب، بل في رفع "التأويل" فوق "التنزيل". فمنذ تلك اللحظة، لم يعد النص القرآني هو الحاكم المطلق والمجرد ، بل أصبح خاضعاً لمرجعية السيف ولتجاذبات السياسة فقرأه الخوارج بعين الجمود والظاهرية المفرطة التي تكفر المخالف، وقرأه الشيعة بعين الباطن والنص على الشخص لضمان العصمة، وقرأه أهل السنة أو تيار الجماعة لاحقاً بعين المقاصد والمآلات التي تغلب الأمن على العدل أحياناً

إذن، يمكننا القول إن التاريخ السياسي للإسلام بعد صفين هو تاريخ الصراع بين ثلاث سرديات للشرعية ، شرعية النص والعصمة النموذج العلوي (الشيعي) ، وشرعية الغلبة والشوكة (النموذج الأموي) و شرعية الثورية والمثالية المستحيلة (النموذج الخارجي).

وهكذا.. أسدلت صفين الستار على عصر "البراءة السياسية" في الإسلام، وفتحت الباب واسعاً أمام عصر "الأيدولوجيا"، حيث تداخل المقدس بالمدنس، وأصبح البحث عن السلطة يمر حتماً عبر بوابة العقيدة، وهو الجدل الذي لا نزال ارتداداته تحكم جغرافية العالم الإسلامي وفكره حتى يومنا هذا.

هوامش البحث

١. المؤرخون العرب والفتنة الكبرى (دراسة تاريخية منهجية) ، عدنان محمد ملحم ، دار الطليعة للطباعة والنشر _ لبنان _ط2 ، 2001 _ ص 56
٢. _تاريخ الأمم والملوك – الطبري – مطبعة دار المعارف بيروت – 1387 هـ - ج3 – ص 206
٣. _مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر _ ج ٢ _ ص ٢٣٢
٤. _مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر _ ج ٢ _ ص ٢٣٢_٢٣٣
٥. _تاريخ العيقوبي_ احمد ابن ابي يعقوب_ مطبعة الغري النجف ١٣٥٨_ ج٢ _ ص٩٣

٦. _مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر _ ج ٢ _ ص ٢٧٦
٧. _موسوعة التأريخ الاسلامي _ اليوسفي الغروي _ اضواء الحوزة لبنان_ ج٤ _ ص ٤٣٢
٨. _الفتنة الكبرى _ طه حسين _ مؤسسة الهنداوي _ ج٢ _ ص ٧٣

٩. _تاريخ الأمم والملوك – الطبري – مطبعة دار المعارف بيروت – 1387 – ج4 – ص 458-459
١٠. _شعر الحرب في ادب العرب (في العصرين الاموي والعباسي الى عهد سيف الدولة _ د. زكي المحاسني _ دار المعارف _ 1961 _ ص 56
١١. _مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر _ ج ٢ _ ص ٢٧٨
١٢. _تاريخ الأمم والملوك – الطبري – مطبعة دار المعارف بيروت – 1387 – ج4 – ص 427-428

١٣. _الامامة والسياسة _ ابن قتيبة الدنيوري_ تحقيق علي الشيري_ مطبعة دار الاضواء ١٩٩٠ _ ج ١ _ ص ٩٩
١٤. _الامامة والسياسة _ ابن قتيبة الدنيوري_ تحقيق علي الشيري_ مطبعة دار الاضواء ١٩٩٠ _ ج ١ _ ص ١٢١

١٥. _عبقرية الامام علي _ عباس محمود العقاد _ منشورات المكتبة العصرية بيروت _ ص ٨_ ٩

١٦. _مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر _ ج ٢ _ ص ٢٥٧
١٧. _الامامة والسياسية _ ابن قتيبة الدنيوري_ تحقيق علي الشيري_ مطبعة دار الاضواء ١٩٩٠ _ ج ١ _ ص ١٢٤
١٨. _الامامة والسياسية _ ابن قتيبة الدنيوري_ تحقيق علي الشيري_ مطبعة دار الاضواء ١٩٩٠ _ ج ١ _ ص ١٢٣
١٩. _موسوعة التأريخ الاسلامي _ اليوسفي الغروي _ اضواء الحوزة لبنان_ ج٥ _ ص ٦٣
٢٠. _موسوعة التأريخ الاسلامي _ اليوسفي الغروي _ اضواء الحوزة لبنان_ ج٥ _ ص١٢٩
٢١. موسوعة التأريخ الاسلامي _ اليوسفي الغروي _ اضواء الحوزة لبنان_ ج٤ _ ص ٤٦٠ "

٢٢. _مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر _ ج ٢ _ ص ٢٥٧
٢٣. _الفتنة الكبرى _ طه حسين _ مؤسسة الهنداوي _ ج٢ _ ص٨٣
٢٤. _مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر _ ج ٢ _ ص٢٥٩"
٢٥. _مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر _ ج ٢ _ ص ٢٧٤
٢٦. _عبقرية الامام علي _ عباس محمود العقاد _ منشورات المكتبة العصرية بيروت _ ص ٨_ ٩
٢٧. _احزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الاسلام _ يوليوس فلهوزن _ترجمة عبد الرحمن بدوي _ مكتبة النهضة المصرية _ ص٣
٢٨. _الفتنة الكبرى _ طه حسين _ مؤسسة الهنداوي _ ج٢ _ ص٨٧
٢٩. _مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر _ ج ٢ _ ص ٢٧٥
٣٠. _الصحيح من سيرة الامام علي _ جعفر مرتضى العاملي _ المركز الاسلامي للدراسات _ الطبعة الاولى ٢٠٠٩ _ ج٢١ _ ص١٠٣
٣١. _الفتنة الكبرى _ طه حسين _ مؤسسة الهنداوي _ ج٢ _ ص٩٦_ ٩٦"

٣٢. _مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر _ ج ٢ _ ص ٢٧٣
٣٣. _الصحيح من سيرة الامام علي _ جعفر مرتضى العاملي _ المركز الاسلامي للدراسات _ الطبعة الاولى ٢٠٠٩ _ ج٢١ _ ص ١١٨
٣٤. _الشورى ، اية(36)
٣٥. _ النساء ، اية (59)

المصادر

- القرآن الكريم

- احزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الاسلام _ يوليوس فلهوزن _ترجمة عبد الرحمن بدوي _ مكتبة النهضة المصرية _
- الامامة والسياسة _ ابن قتيبة الدنيوري_ تحقيق علي الشيري_ مطبعة دار الاضواء ١٩٩٠ .
- تاريخ الأمم والملوك – الطبري – مطبعة دار المعارف بيروت – 1387
- تاريخ العيقوبي_ احمد ابن ابي يعقوب_ مطبعة الغري النجف ، ١٣٥٨
- شعر الحرب في ادب العرب (في العصرين الاموي والعباسي الى عهد سيف الدولة _ د. زكي المحاسني _ دار المعارف _ 1961
- الصحيح من سيرة الامام علي _ جعفر مرتضى العاملي _ المركز الاسلامي للدراسات _ الطبعة الاولى ٢٠٠٩ _ ج٢١
- عبقرية الامام علي _ عباس محمود العقاد _ منشورات المكتبة العصرية بيروت _ ص ٨_ ٩
- الفتنة الكبرى _ طه حسين _ مؤسسة الهنداوي
- مروج الذهب ومعادن الجوهر _ المسعودي _ راجع اصوله محمد محي الدين _ دار الرجاء للطبع والنشر
- المؤرخون العرب والفتنة الكبرى (دراسة تاريخية منهجية) ، عدنان محمد ملحم ، دار الطليعة للطباعة والنشر _ لبنان _ط2 ، 2001
- موسوعة التأريخ الاسلامي _ اليوسفي الغروي _ اضواء الحوزة لبنان_ ج٤ _ ص ٤٣٢